

مالك فان منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والحجاز الى
الاندلس والجزر المتوسطة كصقلية واثريشيا حيث
امتدت من مصر الى تونس والسودان والمغرب
الاقصى (9) واذا كان هذا المذهب قد تمزج بالاندلس
بفضل يحيى بن يحيى الليثي الذي كان مكيئا هند
الامويين وفي اثريقية بفضل سحنون صاحب
المدونة (10) فانه تركر عندنا لاسباب شتى منها ان
الادارة ساندوه لمساندة مالك بيعة الطويين
وتقديم البربر لمدينة الرسول عليه السلام ولعادتها
التي اعتبر مالك العمل بها دعامة لمذهب مع اقرار
المصالح المرسله وتحكيم الاحرف التي لا تصطدم مع
روح الشريعة واهى المولى ادريس الا ان يسند القضاء
لتلميذ مالك وسفيان الثوري محمد بن سعيد القيسي (11)
وقد نشأت جامعة القرويين عام 245 هـ في
احضان هذا المذهب كجامع تركزت فيه دراسة علوم
الدين وعلوم الآلة مثل سائر المساجد التي تعتبر
معهدا ومعهدا ياوي اليها الغريب ويجتمع في حلقاتها
طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث ان اصبح في
القرن الرابع مهيبطا لرواد الفكر يتقاطرون على
عاصمة استوطنها قرطبيون وقيروانيون من رجال

بافعات والروافض بالاطلس الكبير (2) والبعليين (3)
يسوس وقد استاصل المرابطون في صراعهم ضد
البرفواطين شافة هذه الطوائف التي اسهمت نحو
من ثلاثة قرون في نشر العربية ضمن دعاويها
المقاتلية .

وكانت فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية فقد
عرفت مذهب الاوزامي ومذهب ابي حنيفة قبل ان
يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان الاوزامي
امام اهل زمانه - كما يقول مالك - انتشر مذهبه في
الشام نحو مائتي سنة (4) وكذلك في الاندلس
قبل الامويين (5) اما ابو حنيفة فقد ظهرت نظرياته
بافريقية الى آخر القرن الرابع ومنها دخل الى
الاندلس وفاس حيث لم يحتد الصراع بين المذاهب
لانصراف المغاربة الى المذهب المالكي على ان الاسام
ابا جيدة الفاسي قد حمل معه من الشرق وثائق
شافعية (6) بالاضافة الى تضلعه في التفارح المالكية
بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنبلي بالرغم مما اشيع
من دخول احمد بن حنبل نفسه الى المغرب (7)
وكذلك للمذهب الظاهري الذي تزعمه ابن حزم
بالاندلس في القرن الخامس (8) . اما مذهب الامام

- (2) حسب ابن حوقل وهم اتباع موسى الكاظم الذي اخذ له والده جعفر الصادق البيعة بعد وفاة
ابنه اسماعيل (الامام السابع للاسماعيلية) وقد رفضت البيعة لموسى لعرفت بالرافضة التي
وجدت بالاطلس الكبير حسب البكري .
- (3) اتباع علي بن عبد الله البجلي بماسة وتارودانت .
- (4) خطط الشام لمحمد كرد علي .
- (5) مدارك القاضي مياض (ج 1 ص 66) الى ان رحل الى مالك فرعوس وشبطنون زياد بن عبد
الرحمن الذي ادخل الموطن الى الاندلس وغيرهما فالزم هشام بن عبد الرحمن الاموي الناس بمذهب
مالك حوالي 170 هـ اي في حياة مالك حيث كان شيخ المثنين صمصمة بن سلام تلميذ الاوزامي
وامام مذهبه قد ادخل كتب الحديث الى الاندلس (جدوة المقتبس للحميدي طبعة 1952 ص 227)
وقد لاحظ محمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 20 ص 321) ان بعض المذاهب
كمذهب الاوزامي لم تكن تقل عن غيرها شائنا غير ان الملوك لم يعضدوها ولم يهتم بها الخاصة
والعامة وللأوزامي كتاب رد فيه على ابي حنيفة في خمس وثلاثين مسألة حربية اي من القانون
الدولي العام وانتصر الشافعي في كتابه الام (ج 7 لاكثرها) .
- (6) توفى ابو جيدة حوالي 360 هـ (سلوة الانفاس لابن جعفر الكتاني ج 3 ص 93 طبعة فاس
الحجرية)
- (7) كما ورد ذلك في الاعلام للزركلي (ج 1 ص 192) وفي شعراء بفسداد للخاقاني (ج 1 ص 386)
ومجلة اللسان العربي (عدد 3 عام 1965) .
- (8) لاحظ احمد امين (ظهور الاسلام ج 2 ص 7) ان الاجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في اربعة
مذاهب وابطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب .
- (9) الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس ص 17) .
- (10) (جدوة المقتبس ص 360) .
- (11) الجدوة ص 13

تجربتها من الحديث والقرآن كمدونة سحنون (14) وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد ومختصره وهديب البرادعي وواضحة ابن حبيب مستفيضاً عنها بأحاديث اقتبست من المصنفات العشرة على غرار ما نسقه ابن تومرت من احاديث الطهارة فصار المنصور يملها بنفسه كما يفعل السلطان الملوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري (15)، وقد انتشرت هذه المصنفات وحفظتها الناس من العوام والخواص (16) فكان فيها تراء للغة واندرجت منذ ذلك العهد في الفصحى والعامية ماتت الكلمات ذات الاصل القرواني والحديث الفقهي . ومعلوم ان الاشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين للدفاع عن الدين ولكنه لم ينكر ايضاً قيمة العقل فلذلك هدف الى ابراز « موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح (17) ولم تكن هذه الانتفاضات الموحدة خلوا من دخيل سياسي كالمهدوية الشيعية التي عزز بها ابن تومرت نظام دولته .

وتروى في قصة المهدوية احاديث وآثار واخبار اوصلها ابن ابي نعيم الى الاربعة واصاف اليها السيوطي المصري ما نماها وحفظها فراجت في المغرب واثارت موجة من الادعاءات حملت ابن خلدون على نقضها وتفصيل القول في مناقرها ومع ذلك ظهر متبثون كابن هود الماسي وحاميم الفماري وابن ابي محلي ووجد الكهان مجالاً واسماً لمخاريق اسندوها الى حسابات الجفرية وهي جداول منسوبة الى جعفر الصادق امام الشيعة محشوة بالتنبؤات من ماجريات المستقبل بارقام ومربعات اصيحت لفة للكتاب

الفرقة والسنة وكان جامع الازهر (12) يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لافريقيا الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القيروان ثم مع بجاية في القرن السابع وقد ظهرت في بادية الجنوب اول مدرسة عرفها المغرب كدار للرابطين يلحق فيها القراءان ومبديي العلم اسمها وجاج بن زلو اللطفي تلميذ ابي عمران الفاسي الذي كان انتهى به المطاف في تجواله لانتجاع العلم والمعرفة الى حاضرة افريقية حيث برز امثال اسيد بن الفرات وسحنون وابن ابي زيد القيرواني والقاسبي من رجالات الفقه والاصول وكانت قراءة حمزة هي الشائعة بين القراءات القروانية السبع الى ان اختار المغرب كالقيروان قراءة نافع منذ صدر المائة الرابعة لتبسيط تلقين القراءان في الكتابيب التي كانت مجرد جناح في المسجد (ولذلك تسمى السيد وهي تحريف مسجد) وكانت للعوامل السياسية يد قوية في الاختيارات العقائدية اذ ما كادت مثلاً مخطوطات « احياء علوم الدين » للغزالي تنتشر بالمغرب حتى انبرى خصوم المهدي بن تومرت من الرابطين يدهون الى تحريفها لما شاع آنذاك من اتعال لرجلين (13) وكان لتسرب المفاهيم والتماييز الفلسفية الغزالية اثرها في اوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدي بن تومرت ان حملهم على عقيدة الاشعري السلفية من تاويل متشابه القراءان والحديث استناداً الى ضروب المجازات مما يتلام وروح الشرع وبعضه العقل والطبع وحظر المنصور الموحد التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للاصليين على طريقة الاجتهاد المطلق واحرق كتب المذهب المالكي بعد

- (12) بني جامع الازهر جوهر الصقلي عام 359 او 360 هـ في حين تأسس جامع الزيتونة سنة 141 هـ (758 م) صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ بيرم ج 1 ص 122
- (13) اكد ملافة ابن تومرت والغزالي ابن الخطيب في الحلل واليوسي في المحاضرات والركشي في تاريخ الدولتين والزيدي ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه ولا صاحب المعجب وقطع بنفيه ابن الاثير في الكامل والصواب في نظرنا التوقف لعدم وجود الدليل على هذا اللقاء .
- (14) اول من ادخلها الى فاس دراس بن اسماعيل المتوفى عام 362 هـ
- (15) الا ان هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت من تدريس الاصول اذ لم يبق في نظره اجتهاد (الاتحاد لابن ريدان ج 3 ص 213) .
- (16) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة سلا عام 1357 - 1938 ص 177)
- (17) هذا عنوان كتاب للحافظ ابن تيمية وقد تار ابو بكر بن العربي في كتابه (القواصم والمواسم) ضد ما اصاب العلماء في عهد الرابطين من جمود على تفاريع المذهب وضد طريقة التعليم التي تدرجت . ولذلك من تلقين القراءان الى الادب ثم المواظمة فالتدوين فالتنسيق فالحكماء ابن سهل .

الذي عرف في مصر بأبي الخطاب السوسي وادخل الى المغرب مسائل الخلاف وحفظ البرهان لامام الحرمين ومحمد بن المنذر المراكشي (21) تلميذ امام الحنابلة الشيخ مولاي عبد القادر الجيلالي وقد درس الحديث والفقه بفسداد ومحمد بن الخضار السبتي الذي سمع من ابن اصلاح كتابه في علوم الحديث (22) وعلي الحرالي الذي كان ابتدع في التدريس منهاجا « ينزل في التفسير منزلة اصول الفقه في الاحكام » ملاوة على تبريزه في المنطق والطبيعيات والالهيات (23) ومحمد بن عمران الشريف الكرزي الفاسي شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشامية (24) ويونس بن طريفة القصري الذي ولي التدريس بدار الحديث الكاملة بالقاهرة سنة 641 هـ وبذلك اعطى المغرب الاقصى الدليل الناصع على اهلية كاملة لتحمل رسالته الروحية الخالدة في العالم الاسلامي وبرزت فصحي هذا الشق الثاني من جناحي العروبة كأبلغ ما تكون العربية في اصالتها وجزالتها ودقة مصطلحاتها في الخلاف العالي والتفاريع الفقهية وبذلك يمكن القول بان الانتاج المغربي قد اتحد مع الشرق في هذا المجال مبني ومعنى على ان نزعة الاصلاح والتجديد لم تقتصر على الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة - كما سنرى بحول الله - بل شملت حتى علوم الآلة كنظرية ابن مضاء قاضي (25) قرطبة ايام الموحدين انكار العامل في النحو ، وقد اصيحت فاس (26) آنذاك بجامعة حاضرة المغرب العلمية وملتقى علمي (27)

المشعوذين وخاصة في الاطلس الصغير وذاع صيت المغاربة شرقا لاستبحارهم في علوم الطلاسم والتنزلات الروحانية التي تخللت تمايرها حروف سريانية وعبرية وتداخلت هذه المعطيات مع اسرار التنجيم التي خبرها فقهاء ومتصوفة ادرجوا معها خواص الاسماء وكان لذلك اثره في تعقيد التأويلات القردانية وخلق مصطلحات جديدة اورد بعضها ابن خلدون الذي علل لنا ببرامته بعض مناصرها مشيرا الى تكهنات مالك بن وهيب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذي استغل في دعاويه هذا الاستعداد الفطري في نفوس العامة فبدأ بتأسيس رابطة للعباد جمع فيها طلبة القبائل ولقنهم تعاليم التوحيد بكتابه « المرشدة » باللسان البربري ولقب انصاره بالموحدين ووصم خصومه بالتجسيم وهب لتعاليم باسم الدين ومهما يكن فان سوق القردان والحديث نفق فظهر اول تفسير للقردان لابن عطية اقتبس من كشاف الزمخشري مجردا من عناصر الاعتزال كما تلمذ للشرق محدثون مغاربة منهم ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي اقام يقرر الحديث في المشرق ولم يدخله حتى حفظ - كما يقول ياقوت - اربعة وثلاثين ألف بيت من شعر الجاهلية (18) ومحمد الجبائي (19) البغدادي الذي روى عن الطبري وجلب من تأليفه احكام القردان واصول الفقه والرد على ابن حنبل وميمون بن ياسين الذي قرا على الطبري صحيح سلم وجمال الدين البغدادي الشافعي الذي ولد بقصر نامة بشمال المغرب وعمر بن الطوير المراكشي (20)

118 مجمع البلدان ج 6 ص 62 (19) توفي عام 546 هـ اسوة الاناس ج 3 ص 267

120 توفي عام 622 كما في الدليل والتكملة .

21 الاعلام للمراكشي ج 4 ص 883 ، 22 توفي بدمشق عام 634 هـ (درة العجال ص 282) .

23 حتى كان يقض النجاة لابن سينا انيل الابتهاج بابا السوداني ص 187 . (24) قال فيه تلميذه القرافي انه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون ص 286)

25 احمد امين ا ظهور الاسلام ص 118) حيث لاحظ نقلا عن ابن جنى « ان الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجزم انما هي للمتكلم نفسه لا لشي غيره .. وان ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن ان تكون عاملا في زيد او عمرو .. »

26 المعجب للمراكشي ص 221 .

27 وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اكلينسار الذي زار المغرب عام 948 هـ (1540 م) وكتب رسالة باللاتيني عن القرويين وهوالد الطلبة واوصل عدد مدارس فاس الى المائتين وعلله يعني الكتابيب القردانية .

التوفيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب
وسائر العلوم العقلية ..

وقد تابع مات العلماء رحلتهم الى الشرق نذكر
منهم كمنادج لنوع التبادل بين الجناحين :

تاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي (701 -
752 هـ) الذي اعاد بقية الشافعي بالقاهرة وولي
تدريس المسروبة ودار الحديث الاشرافية حيث
خلفه تقي الدين السبكي (31) وابن المواق احمد
التجيبى الذي استنظر الموطن بمصر فحرب شيوخ
المالكية الطبول على راسه (32) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سوادة الفاسي شيخ
مرضى الزبيدي (33) .

وابن زكري الفاسي الذي عقد علماء الازهر
مجلسا لمناظرته فى القضايا الفقهية كشراب
الدخان (34) .

ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب
المنطقي الذي تولى التدريس فى المنصورية والخانقا،
الشيخونية بالقاهرة (35) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الذي
سمع من شيوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث
ولي مدرسة الناصر (36) .

والكمال بن ابي البركات الكناسي شيخ المحدث
الحافظ ابن حجر المستقلاني (37) ومحمد تقي الدين
الفاسي الذي وافق ابن حجر فى السماع بمصر
والشام واليمن (38) .

وابن الخطري المراكشي المصري الذي ذكر المقرئ
انه كان يحفظ المدة والاسماء لابن دقيق العيا

القيروان وفرطبة وتركزت فى القرويين بالاضافة
الى علوم التفسير والحديث والاصول والفقه والعلوم
التقليدية كالنحو والبيان والمعاني والبدع والمنطق
والعروض والكلام والتوحيد والتصوف واللغة
والادب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات
(وهى الحساب بالمغرب) والجغرافية والتاريخ
وتزييدات افواج الطلبة الواردين على فاس من مختلف
الانطار الانريقية والغربية مثل جيربير Gerbert
الذى عين بعد ذلك على راس الكنيسة باسم البابا
سلفستر الثاني Sylvestre II عام 999 م وادخل
الارقام العربية الى اوربا . وقد هزرت دولة بني
مرين هى الاخرى نظامها السياسي بتكتيل الطلبة
تحت شعار السنة وبناء المدارس (28) ومساندة
الصوفية وتشجيع الزوايا والاضرحة التى تفق
فيها - كما سنرى - سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها
ودسائسها ومناطق نفوذها وادبها الخاص ولغتها
ومصطلحاتها .

ورغم تصارع الانكار فى هذا الخضم من البدع
التي هزت السنة فى مقر دارها فان العلم بالمغرب
ظل محاطا بسياج من القداسة بالرغم من فقدان
الملكة والتحقيق العلمي - كما يقول ابن خلدون
(29) وغلبة الاستظهار حتى قال علي بن ميمون الذي
زار الشرق فوازن بين فاس وبين حواضره فى الشام
والحجاز ومصر من حيث الاصاله العلمية فقال :
« ما رأيت مثلها (أي فاس) ومثل علمائها فى حفظ
ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وفزارة الحفظ
لنصوص امامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة
من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل
علم مثل النحو (30) والفرائض والحساب وعلم

(28) مفضل المدري صاحب الشرطة والحسبة بفاس اول من سن سنة بناء المدارس (جذوة
الاقتباس لابن القاضي ص 220) وقام ضد بنائها محمد الابلى العبدري شيخ ابن خلدون
ملاحظا ان ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس وايده بابا السوداني (نيل الابتهاج ص 246) وقد
بلغ عدد المدارس بفاس اربعة عشر هى عبارة عن احياء جامعية اي مساكن للطلبة تحتوي على غرف
(29) نشر المثاني للقادري ج 2 ص 97) .

(30) كان موسى بن زيري الهسكوري المعروف بالبخاري يحفظ كتاب سيويه عن ظهر قلب (درة الحجال
- طبعة الرباط 1934 ص 314) . (31) الدارس فى تاريخ المدارس للتعميمي ج 1 ص 458) . (32) توفى
عام 725 هـ (السلوة ج 3 ص 244) . (33) راجع مادة سود فى شرح القاموس للزبيدي .

(34) السورة ج 1 ص 83 . (35) توفى 774 هـ (درة الحجال ص 490) . (36) مات عام 823 هـ (الاعلام
للزركلي ج 4 ص 50 وذيول طبقات الحفاظ . (37) الاصابة ج 4 حرف م . (38) نيل الابتهاج ص 318)

ولم يحظ المغرب الاقصى في مختلف العصور بزوار من علماء المغرب اذا استثنينا الوالدين في عهد المنصور السعدي (أي اوائل القرن الحادي عشر الهجري) من الحجاز وللسطين ومصر والشام والعراق والهند وقد سبق لصالح الدين الايوبي ان يبعث وفدا الى المنصور الموحد عام 585 هـ يطلب منه امداده بأسطول لحاضرة مكا وصور وطرابلس الشام واولد اليه ابا الحرث عبد الرحمن بن منقذ مع رسالة من انشاء القاضي الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقذ مطلعها :

سأشكر بحرا ذا عباب قطمته

الى بحر جود ما لاخراه ساحل

وكل من الرسالة والتصيدة لا تختلفان في معانها ومبناها من اللون المادي التحجر الذي وسم الادب العربي في هذا العصر شرقا وغربا والذي جعل مصطلحاته متناسقة موحدة .

واستسمح حضرات الاخوة اذا انا ازمجتهم بلائحة طويلة استهدفت من سرد اسمائها اعطاء صورة عن اتجاه علماء المغرب الجديد في اعطاء الاسبقية للعلوم الاسلامية لاسيما منها التفسير والحديث والفقهاء مما اضفى على دراساتهم - رغم كلاسيتها وتاريخها الاستطراذية المملة - طابعا خاصا جعل منها مرجعا هاما في تاريخ التشريع الاسلامي وتاريخ تطور اللغة واذا كان الرحالون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القرن الماضي بسبب الحواجز الاستعمارية التي اقيمت في طريق الحجيج بالجزائر منذ عام 1830 م فان المغرب ظل مع ذلك يتتبع بثلف جميع حركات التجديد المنبثقة من الشرق ويوالي بعث وفود رسمية تحمل دوريا هدايا وصلات لرجال الفكر وارباع الاوقاف المرصودة لامانة الطلبة (46) وقد جدد السلطان محمد بن عبد

والشاطيبين والطوالح في اصول الدين وابن الجلاب والرسالة في الفقه والحاجبية والملحة وغالب الفيسة ابن مالك والتلخيص وقد طارح الادباء وقرئ الشعر وشارك في اللغة والطب والهيئة وولى تدريس الفقه في مصر بجامع الحاكم والقرانستقرية والحسنية والحديث بالفاضلية والامادة بالكاملية والمنصورية (39) .

وعبد الرحمن سقين الذي اخذ الحديث من القلقشندي وزكرياء الانصاري والسخاوي مصر ومن ابن فهد بمكة (40) .

وادريس العراقي الفاسي الذي كان له كما يقول صاحب السلوة فضل على محدثي مصر حيث استدرج احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيف على الخمسة آلاف وكان احفظ من ابن حجر (41) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي الذي وصفه صاحب خلاصة الاثر بانه « فرد الدنيا في العلوم » حصلت له بعد التطواف بمصر والحجاز والشام وبلاد الروم الرياسة العظمى في علوم خاصة بالطبيعي والالهي والرياضي والارتماطقي والمساحة والرمل والحروف والسيمياء (42) وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علمية رائعة (43) .

ومدرسة الشيوخونية كانت اكبر مدرسة بمصر نظم اليها علماء مغاربة برزوا في شتى العلوم الفنون وقد قامت على اكتاف الفنان عبد الكريم فاسي - كما يقول تيمور - (45) نهضة متواضعة - صناعة الخرف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع الواح القاشاني (تسمى الحائطيات بالمغرب) تنغصية جدران العمارات وتوجد الآن نماذج منها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

(39) توفي عام 872 هـ (الاعلام ج 4 ص 125 . (40) السادة ج 2 ص 160 .

(41) السلوى ج 1 ص 142 . (42) توفي عام 1094 (الاعلام للردكلي ج 4 ص 334) .

(43) طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين .

(44) نيل الابتهاج ج 84 و 96 وقد كان بمصر في اواخر القرن الماضي (عام 1898 م) نحو 1500 مغربي .

(الوثائق المغربية ج 11 ص 1907) .

(45) في كتابه حول التصوير عند العرب .

(46) وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شتى على مكاتب القاهرة والاسكندرية وجلب كتباً من الشرق ورتب لاهل الحجاز واليمن مائة الف مثقال ذهبي كل عام (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 251) والمثقال الذهبي قد عوض الدينار بالمغرب وضرب نوع منه بالرباط عام 1787م وكانت قيمته اقل من الدينار .

دائبة ما فتىء يبذلها رسل الفكر طوال الف عام من الاستقلال الا ان المغرب الاقصى رهبا انفرد بسون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والتون الفقيه والنصوص النحوية وحتى المعاجم اللغوية .
 (في شنيق وسوس) مما فسح المجال لسات المفردات العربية الخالصة التي طمعت لغة الخاصة والعامية وكان للحلقات العلمية التي تعقد يوميا وبحضرها الجمهور في مختلف المساجد (وما اكثرها بالمغرب حيث بنفت بفاس وحدها في عهد الموحدين زهاء خمسين وسبعمائة) اثر قوي في توعية الشعب وتفصيح لسانه حتى اصبحت الاي القراءاتية والاحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وامسى القراءان معجم المساكين - كما يقول المثل العامي - يصحون منه اللغة واذا تعرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا « المعجم الصوفي من القراءان » فان حرف الالف منه يبلغ المائة منها كلمات الاخلاص وارذل العسر والاستدراج والاستفانة والاستفاد والاستقامة والاسراب والاصنام والاطلاق على الغيب والاعتصام والاقتصاد واقتصرار الجلد والالواح والامانة والامثال والانابة وانباء الغيب والانذار والانصاب والانفاق والاوزان والاوزان والاوليا والاحاد والائمة والايمان .

وقد دخلت كثير من التعابير القرآنية في لغة العامة مثل قولهم « قتل كيف قدر » (اي ما د طبقا لما قدر في الازل) و« قاتلهم الله » و« خذو فاقتلوه » (وهي كتابة عن فعل الشيء باستعجال وبالله وتعال بمعنى تعال واثت) وقيل باسم الله او توكل على الله (اي اشرع في العمل) والصلوا على النبي (اشارة الى النهاية او الكفاية خبرا ا انشاء) ولا الضالين (كتابة عن الموافقة بدلا من نعم وبالتي هي احسن (اي بالمول) الى غير ذلك .

ومن المصطلحات التي تسربت الى الفصحى والعامية عن طريق الحديث النبوي الشريف قوله حج فلان (اي بلغ الغاية) وصلى عليه صلاة الجنائز (اي يس من خيره وشره واعتبره كأنه مات) وكفر عليه (اي افتناظ منه) وفلان حال واحوال (اي كثير النكير) وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقا لمفهوم حديثين شريفيين وهما « المظاهر » بمعنى المرائض (وتسمى عندنا ايضا الميضات طبقا للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا « اتخذوا على ابواب مساجدكم المظاهر » وكذلك لفظ « البيت » بمعنى الجزء الصغير من الدار كلها .

الله عصر الموحدين بالدعوة الى السلفية ودراسة الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وضرب لذلك امثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما اصدر نجله السلطان سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السنني وعدم التفالي في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبيد الله بن سعود قد وصل وانذاك الى تونس وفاس يحفل اسس الدعوة الوهابية . اي المذهب السلمي كما يراه محمد بن عبد الوهاب (فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن الحاج باسم السلطان وحمل الجواب الى الحجاز نجله الامير ابراهيم في وفد من العلماء لمناظرة الوهابيين .

وهكذا برهن المغرب دوما عن روح اسلامية رياضية اهلت الشمال الافريقي لاحتضان التراث الاندلسي ولربط امجاد الماضي والحاضر والسهل على معطيات الفكر الاسلامي في سلفيته الحق ولطبع الاجيال المتوالية بميم المثالية في نطاق الوحدة الاسلامية وكانت هذه الروح تدكسي حتى المرأة في خدرها بالرغم من الدور المحدود الذي اسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظرا لانتشار الامية بين النساء واذا كانت المرأة هي المدرسة الاولى للحياة والنواة الجوهرية للدم الوهي الديني داخل الاسرة فان حصانة المرأة المغربية قد جعلت منها - بالرغم من ثقافتها المحدودة - مربية بارعة تضرب المثل الحي برصانة تفكيرها وحسن تدبيرها على ان تلة من النساء قد نبضن - على قلتهن - في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الاسلامية كخيرونة الفاسية والشيخة ام قاسم الاسفية وام هانيء المبدوسية، وقد توالى بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانتشرت آلاف الكتابيب القراءاتية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافد للكليات والمعاهد « الاصلية » التي انطلق منها الاشعاع الديني بلغة القراءان وقد ظلت جامعة القرويين طوال مدة الاحتلال الاستعماري منبثقا للاحرار الذين اجبوا نار الثورة ووثقوا الصلة مع زعماء الاسلام في الشرق امثال الالفاني وعده ورشيد رضى - بعد ما اوهنتها دسائس الاستعمار .

وهكذا نستجلى من هذا الاستعراض لتطور الفكر الاسلامي في المغرب الاقصى صورة لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود

وما أنتهت للجوف فهي الجائفة
وقوله :

والرقيق داء الفرج في النساء
كالتقرون والعفل والافضساء
والبضع بالبضع هو الشفار
وهقده ليس له فرار
وسمي الفاسن بالجميل
كذلك بالزميم والكفيل
والجنس بالجنس هو المراطة
بالوزن أو بالمد فالعبدلة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه في الشرق من هذا الإيجاز الفاضل التي حررت الملازم « العديدة » لحل الغازه كمختصر الشيخ خليل المصري الذي ادخله الى المغرب منذ القرن الثامن الهجري محمد ابن الفتوح أمكناسي (49) والذي حفظه الطلبة وحتى العامة عن ظهر قلب وبذلك تكون العلوم الإسلامية قد أسهمت بحظ وافر في تطوير لغة الضاد بهذا الجناح الغربي للعروبة . غير أن التعليم الإسلامي ما لبث أن تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والإرشاد في المساجد وما تستتبعه من توعية شعبية عن طريق اللغة العربية وبدأت الإذاعة والتلفزة والصحافة تقدم يومياً للشعب حصيلة لا بأس بها من مصطلحات العصر تعزز أحياناً بفتاوى دينية تصل بين ماضي هذا البلد المسلم المحافظ وحاضره المتأرجح بين مختلف التيارات وراى حماة العربية من رجال القرويين وغيرهم في ذلك مأساة لمستقبل اللغة في روعتها الأصيلة فحدثت خفارتهم اليقظة الجبل الجديد الى الدموة لعربية عصرية تستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة وللتقنيات الملحة في دقتها ووضوحها .

فمن أحمد بن حنبل أن زوجة أبي حميد السامدي قالت : « يا رسول الله اني احب الصلاة معك » قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك فقد دقت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها مات الشروح التحليلية واصبحت لغتها من اعمق اللغات دلالة ووضوحاً وقد وضعنا مجماً للفقه المالكي (بالفتن العربية والفرنسية (47) يعطينا صورة عن مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه الالفاظ في الحياة اليومية ونكتفي هنا بالإشارة الى كلمات من حرف الالف كإبراء واتفاق العلماء والبيات الدليل والاجبار والاجتهاد والاجارة والاجر والاجل والاختبار والارتداد والاثراء والاستحقاق والاستحالة والاستماع والاشتراك والاصول والافتصاب والافتاء والاقالة واقامة الحدود والاقرار واقامة البينة والامر بالمعروف وامضاء البيع وامارة المؤمنين والاتفاق والانكار واهل الحل والعقد .

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالمغرب مظهرها البارز في الاجتهاد داخل المذهب المالكي نفسه حيث فرضت فاس مثلاً نظرها الخاص في قضايا قانونية وفقمية تجلت في العمل الفاسي الذي نظمه الشيخ عبد الرحمن الفاسي وشرحه الشيخ السجلماسي .

وقد صنفت الآلاف من الكتب في الفقه والفتاوى وانوارل واحكام بدت ما عرفه الشرق وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والدلولات التي تزخر بها تلك المصنفات حتى صار المدرس الفقهي في كراسي جامعة القرويين عبارة عن تحليل لتلك التمازيف (48) التي كثيراً ما تنظم شعراً يقول ابن عاصم في تحفته :

- (47) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص 215) مع المعجم الصوفي (ص 176) .
(48) عرفت تونس أيضاً شيئاً من ذلك يتجلى في تعريفات ابن عرفة .
(49) المتوفى عام 818 هـ (درة البحال ج 1 ص 293) وقد دخلت كتب الحديث واللغة الى الاندلس ومنها الى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو اول من نقل كتاب العين (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج 1 ص 294) كما نقل ابن الضابط عثمان بن ابي بكر الصدي كتاب غريب الحديث للخطابي ومحمد بن ابراهيم التلمساني شامل بهرام وشرحه لمختصر خليل وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال علي ابن الحاجب في الفقه (شجرة النور ص 254) اما في الادب والفلسفة فقد ادخل عثمان بن المشي القرطبي (المتوفى عام 273 هـ) شعراً ابي تمام بعد ان قرأ عليه (ابن الفرضي ص 1249) وفرج بن سلام القرطبي كتاب « البيان والتبيين » باجازة من الجاحظ (ابن الفرضي ص 286) وابو الحكم الكرماني رسائل اخوان الصفا (طبقات الامم ص 71) .

الأثر الصوفي

منصور عبد القاهر البغدادي وربها تبعاً لاصحابها
على حسب الحروف الهجائية .

ويبدو لي أن انقل لهؤلاء الذين يزعمون أن
التصوف المغربي تائر بالنزعة الصوفية المسيحية -
لاسيما ماسينيون الذي زعم أن الشيخ ابن عربي
العالمي استمد من نظريات الكنيسة ما قرره
المشترق الإسباني اسين بلاسيوس من أن نزعات
دانتي (Dante) الإيطالي وأوصافه لعالم الغيب
مستمدة من كتب محيي الدين العالمي دون كبير
تصرف وكذلك اكهارت الألماني أول الفلاسفة الصوفية
الغربيين الذي نشأ في القرن الثاني لعصر ابن عربي
ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت
تمتد على الثقافة الاندلسية في الحكمة والعلوم وقد
اقتبس ريموند من ابن عربي خاصة في كتابه (اسماء
الله الحسنى) لأنه كان يحسن العربية. وهاش بعد ابن
عربي بقرن واحد وجعل أسماء الله الحسنى مائة
وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل
ذلك .

وسبينوزا Spinoza اليهودي البرتغالي كان كلامه من
الذات والصفات نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين
مع قليل من التحوير والمسيحية تكاد تكون فارغة من
الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشو بيلير في
محاضراته (ص 29) حيث ذكر أنه إذا استثنينا
ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة
القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فإنه لا يبقى
شيء بالمرة .

ويقول جامي في نفحات الانس (ص 34) بأن
أول من تسمى صوفياً هو أبو الهاشم الكوفي المعاصر
لسفيان الثوري ويرى السراج في اللوح (ص 22)
أن أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

وأول من تكلم في بغداد في الحقائق الإلهية
والتوحيد سري السقطي (تذكرة الأولياء ج 1 ص
274) وأول من حاضر الناس في التصوف يحيى بن
معاذ الرازي المتوفى سنة 258 هـ (التذكرة ج 1 ص
299) .

التصوف المغربي قطعة حبة من التصوف
الإسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربية
من آثار عميقة في الفكرة الصوفية الشرقية .

ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية
الإسلامية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم أمثال
رونان الذي قرر في كتابه (ابن رشد ومذهبه)
(Averroès et l'Averroïsme) من أن ما يسمونه فلسفة
عربية ليس إلا مجرد محاكاة أو تقليد لارسطو وضرباً
من التكرار لأراء وافكار اليونانيين كتب باللغة
العربية (ص 7) ولكنه تناقض مع نفسه حيث
اعترف (ص 89) (بأن العرب مثل اللاتين - مع
نظائرهم بشرح ارسطو عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم
فلسفة ملأ بالعناصر الخاصة ومخالفة جد المخالفة
لما كان يدرس في اللسيوم) ولم يخف هذا التناقض
على أحد معاصري رونان وهو دوكا الذي ذكر في
مقدمة كتابه (تاريخ الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين)
أنه لا يمكن لعقبة كعقبة ابن سينا إلا أن تنتج
جديداً .

وقد ضربت مثلاً بالفلسفة (50) لما بينها وبين
التصوف من وثيق الصلة حتى قيل أن التصوف
قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية
فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكرو الإسلام)
وقد تأثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالنزعة
الصوفية في (رسالة حي بن يقظان) حيث وصف
بطل القصة (ص 114) بأنه (لما فني عن ذاته وعن
جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد القيوم
وشاهد ما شاهد هاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق
من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله أن
لا ذات له يفاير بها ذات الحق وأن حقيقة ذاته هي
ذات الحق ... بل ليس ثمة شيء إلا ذات الحق)
وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تعريف التصوف
حتى ساق ابن السبكي في طبقاته (ج 3 ص 239) ألف
تعريف سهر على التقاطها من مختلف المصادر أبو

(50) أحمد بن عبد الله بن محمد الذرور المراكشي نزير القاهرة جنح إلى التصوف الفلسفي ونسخ
الفتوحات المكية والتنزلات الموصلية فكان أبو حيان لذلك يرميه بالزندقة وصار هو يصف إيا حيان
بأنه ظاهري حتى في النحو .

وأحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان : مشارك في الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الإلهية تلميذ
ابن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب .

ان تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذي لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزها الى الجانب الثقافي والروحي . على ان التصوف المغربي كان له كبير اثر في توجيه وتلون جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شدراة في مصنفات لم يكن من المنتظر ان تحفل به فانك تجد اخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت في المغرب في وقت مبكر - مبشرة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة علي المرشد ومعمار الونشريسي الذي تحوي اجزائه نفا متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لآباس بها في وصف التيارات المتعاكسة التي خلقها انشااق الطرقية في المغرب .

ويطلب على ظننا ان الحركة الصوفية كانت انشط في الجبل (الاسيما الريف) والقرى منها في العواضر اللهم الا بعض مدن الساحل التي كانت مهبطا لصوفية الاندلس كسبتة واسفي وسلا او مدن داخلية كمراكش وعاس نظرا لاشعاعها الثقافي الذي تجذب له النفوس . . ومهما يكن فان اولي التراجم الصوفية انما حظيت بها قسرى البادية ككتاب « المقصد الشريف والمنزوع اللطيف في ذكر صلحاء الريف » لعبد الحق البادسي (في القرن الثامن) والمعزى في ترجمة ابي يعزى « وائمد العيينين » لابن تجلات في مناقب الاخوين الهزميريين الذين عاشا ردحا طويلا في الهماة ثم حظي صوفية المدن بكتب منها « المنهاج الواضح » في ترجمة ابي محمد صالح (المتوفى عام 631) تلميذ ابي مدين الفوث ا ومدينة اسفي نفسها انما بنيت حول ضريح ابي محمد صالح كما قامت مدينة زرهون حول الضريح الادرسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام 1110 هـ وتأسيسه جامع الخطبة الكبير المتصل بالضريح وكذلك وزان) « والسلسل العذب الاحلى في صلحاء فاس ومكناسة وسلا » لمحمد الحضرمي الذي صنفه في القرن الثامن وكذلك « الكوكب الوقاد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد » .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط وجاج بن زلو اللطفي السوسي الذي كان يسمى دار المرابطين وقد اتخذ مجمعا لطلب العلم وقرأه القراءان حسبا ورد في النشوف (ص 36) الذي نجد من بين رجاله الصوفية كثيرا من « الملمين » المنقطعين لتعلم

وقد اصبح التصوف مذهبا منظما اناء الجزء الاخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويلوح من ثنايا الرسالة التفسيرية والتذكرة ونفحات الانس ان صوفية هذا القرن اتخذوا القراءان والسنة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية التي بدأت تقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الانصاري الهروي المتوفى سنة 481 هـ ان كثيرا من الاكاذيب انتحلت باسم ابي يزيد البسطامي مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتي بازاء المرش (نفحات الانس ص 63) وهو القول الذي بنوا عليه قضية معراج ابي يزيد التي يقصها فريد الدين العطار في تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لان تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الالف ورد منها مائتان في الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر في تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الاسيوية سنة 1906 ص 330) فقد عرف الكرخي التصوف بأنه الاخذ للحقائق والياس مما في ايدي الخلائق (الرسالة التفسيرية ص 149) ووصفه ابو حفص الحداد بأنه تمام الادب (التذكرة ج 1 ص 331) وذكر ابو الحسين النوري ان التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر ابو سعيد بن العربي ان التصوف ترك الفضول (نفحات الانس ص 348) وقال ابو الحسن البوشنجي : التصوف ضعف الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدأت تظهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري واول خانقاه اسس لتصوفة المسلمين (على ما في النفحات ص 34) كان بالرملة في فلسطين وذكر القريري في خططه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات - او الخانقاوار كما يسميها - وجدت في الاسلام في القرن الخامس الهجري .

والخانقاه اهمق في التزمت والرهينة مما عرف بعد بالروايا لان هذه الخانقاهات كانت مبنية في معظمها على نظام صارم من التبخل والرهينة .

كتاب الله . وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذلك وسنرى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضامت الى التعمد بالقرءان تعبدات بالادمية والاذكار .

وكان هناك نوعان (51) من الرباطات : رباط من الطراز الذي اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بأكملها كرباط ماسة ورباط تيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محلة يربط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب ابي وقرق كان يربط فيها نحو من مائة الف من الفزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة التحلة البرغواطية .

وبين هذه وتلك الرابطة التي ابتناها عبد الله ابن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبتل فيها ثلاثة اشهر مع نفر من كدالة وفي مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم امير صنهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفاس من اشرف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتأسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على اساس فكرة مذهبية بعد الدولة المرابطة في سجلماسة والدولة الادريسية في الشمال وقد نسح استعداد المغاربة الروحي المجال للعبادة الهدوية مثل محمد بن تومرت الذي اسس دولة الموحديين والمبيدي الذي قام بعده في جبل ورغة من احواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب اول عام 600 هـ .

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك في الاندلس ايام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) ان احمد بن قسي ابني مسجدا في بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالباطيل ، كما ادمى النبوة ابراهيم الفزاري الساحر .

وقد تسربت الى المغرب من الاندلس الطائفة المسيحية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العثمانيين بتقصده وفي طلبعتهم الامام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة الا من خلال انتقاداته وهذه الطائفة وان كانت لا تنسب بالطابع الطرقي الا انها من المذاهب

التي اوتكر انتحالها على مذهب صوفي اساسه التاويل الرمزي للقرءان على طريق الاسماعيلية التي لعبت دورا كبيرا في تبلور الفكرة الصوفية في الاسلام ! .. ومنها الطائفة الاندلسية التي اسسها محمد الاندلسي نزيل مراكش وكان رجلا مولما بالطب والكيمياء نسب الائمة فافنى فقهاء الحمراء بتخليبه وزج به السلطان في غياهب السجن .

وقد ظل المغرب خلال العصور الاولى بعيدا عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التي كانت تصف اذ ذلك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشي الذي صنف كتابا في البدع والمعادنات في رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بان اهل المغرب هم المشار اليهم في الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق » لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين !

فنحن لا نكاد نجد اثارا بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن ان نعتز فيما صنف خلال القرون الاولى كالتشوف على اشارة الى شذوذ عند الصوفية او صدور دعاوي نابية عنهم لان التصوف كان اذ ذلك مطبوعا بالسطوة ولم يكن الصوفية يختلفون من بقية الناس الا بكثرة العبادة وتلاوة القرءان وسرد المآثور من الادمية وكانت الاذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة ومن القرءان من ذلك بعض الاحزاب لاسيما احزاب الشاذلي التي تتألف مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقعة والمرقعة صفة لازمة للصوفي المغربي الا اذا جاء ذلك مفوا عن طريق الزهادة في متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرءان والجهاد فاذا طالمت تشوف ابن الزيات وجدت ان كثيرا من رجاله كانوا « معلمين » او مدررين يعلمون القرءان للصبيان !

وكان الامر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والخطول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والابفال في لسن المرقعات واندساس

(51) عدد الربط والزوايا في سبعة سبع واربعون محاذية للبحر داخل المدينة والارياض (اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم الانصاري Hespéris م 12 عام 1931 ص 155 .

الإدعياء في صفوف النزهاء حتى كان التشييري ينشد
إذا جلس إليه الصوفية وعليهم الهيئات والمرقصات
أياماً منها :

أما الخيام فأنها كخيامهم

وأرى نساء الحي غير نساها

ثم يقول أما الهيئات والمرقصات لمعروفة وأما
القلوب فمتكرة وكان الجنيد ينشد :

أهل التصوف قد مضوا

صار التصوف مخرفة

صار التصوف ركوة

وسجادة ومدلقة

غير أن الفكرة الصوفية ما لبثت أن تشعبت
فتسرب إليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن
الهجري على اثر انتشار الطريقة واندساس الأدعياء
في الزوايا والرباطات فانتحل الكثير المذهب الصوفي
لأغراض لا تمت إلى الروح بصلة وأصبح التصوف
عرضة للافتيات يستغله كل من يريد التوصل إلى
أمراض الدنيا من طريق السحرة والتدليس على
العوام والدهماء فتجردت الطريقة من شتى مظاهر
الرواء والسمو والجاذبية والجمال

وبدأت الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ
القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المتجددة
وما زال التراث الصوفي يتضخم ويتسع إلى أواخر
القرن الثاني عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت
الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من
التأليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرائقهم .

والحقيقة أن التصوف بدأ يتدهور منذ أصبح
في متناول العوام تلوكة سنتهم في غير هدى ولا
اتزان ولن أضرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة
أبي محمد صالح دفين أسفي وتلميذ أبي مدين
الفوت فقد كان أماً ذائع الصيت يرد عليه الصوفية
حتى من مصر للاخذ منه وانتشرت طريقته خلال
القرن السابع فكثرت تلاميذه في الشام وبلاد الكنانة
حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

ففا بي على الجرهاء من جانب الغرب
ففيها حبيب لي بهم به قلبي

غير أن طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما
لبثت أن انحرقت بما دسه فيها الدخلاء والإدعياء
وأصحاب الأفراض من الدجاجة والمبسين .

وفي القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه
« شفاه السائل » فرد الطريقة إلى أصولها وحل
خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الأدعياء .

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية
الإمام الناقد الشيخ زروق بكتابه « عدة المريد الصادق
من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث
الوقت » ، وقد علل انتشار المثلثة والأدعياء بانتقاص
الإيمان والجهل بأصول الطريقة وامتقاد ان الشريعة
خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مبادئ الرندقة)
وحب الرياسة مع الضعف عن أسبابها ثم أكد أن
الصوفية الحقيقيين انفسهم عرضة للخطأ وأن
مقالاتهم يجب أن تعرض على الكتاب والسنة وأن
الفقه والأصول شرطان في التصوف فلا تصوف إلا
بفقهه .

وقد تعرض إلى الأسس العملية التي بنى عليها
الطريقون مددهم فذكر أنهم قرروا مخالفة النفس
بكل وجه وغلطوا في هذا الإطلاق لأن المقصود موافقة
الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد
بقول عمر بن عبد العزيز :

« إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالريد »

وأنهم تجردوا عن المعتادات بدلاً من الإنس
بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية
وإدخولها على انفسهم المشاق والأجر على الإبتاع لا على
قدر المشقة وقد أشار إلى الفتننة التي وقعت في
الاندلس في القرن الثامن حول قضية اتخاذ المشايخ
حتى تضارب الناس بالنمال وكتبوا إلى البلدان
الإسلامية يستفتون ولا شك أن شيوب هك
الفتن كانت نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن
الجادة وتدخل العوام في وقائعه ، كما كان أبو
الحاسن الفاسي ينهي عن ذلك مؤكداً أن كتب
الحائمي وأبن الفارض « تسد على الناس باب الفتح »
حسب تعبيره ويدعو إلى الإدمان على حكم ابن عطاء

الله . والشمراني (52) نفسه كان ينهى مرديسه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربي وغيره من « غلاة الصوفية » (البحر المورود ص 274) وهذا لا يتنافى مع ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة الى كتب ابن عربي فانه احترس هناك - كما يقول زكي مبارك - حين اقتنع المرید بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفا للشرع انما هو من وضع الدسائس .

كما حمل اليوسي في محاضراته حملة شعواء على ادمياء الطريقة ورسوم لنا صورة مما انتهى اليه التصوف المغربي بسبب من اندس في حظيرته من مفرضين فقد قال : « كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون او معتوه او موسوس او ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الالهام .. وقد يشايه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » (ص 39) ومن الحرب ما حكاها اليوسي (ص 40) ان رجلا ورد على سجلماسة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودي .

وكانت البادية المغربية اكثر ابغالا في الابتداء واشد انحرافا عن الروح لغلبة السداجة على اهلهما الذين كانوا يلفون في التبرك بالآثار الصالحين حد الشلوذ .

وفي القرون الاخيرة اختلفت المقاييس وتشتت الدعاوي واستفحلت النحل فكنت ترى افواج الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كل سنة للوقوف به يوم هرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين يسمون انفسهم بأهل الخواطر يتجمعون بأحد مساجد عدوة الاندلس للتحدث عن الخواطر وعرضها على الشيخ وتاويلها غير ان علماء الصوفية كانوا حريصين على فضح الدجاجة الذين يندسون في حظائرهم التماسا لاهراض الدنيا وحطامها على ان دعاء السلفية امثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وابي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن

الجوزي من المشاركة قد تشبعوا هم انفسهم بالتصوف السني واذا رجعنا بين المتأخرين الى سيرة محمد عبده وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرازق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته ان الشيخ درويش الر بتريته الصوفية في الاستاذ وبطل هذا التأثير قائلا : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسي فان التربية الصوفية تدعو الى تليف السر بأنواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار « انه لكثرة الانهماك في الذكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في احوال القوم ومقاماتهم يخرج (اي الاستاذ) عن حسه ويروج في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول فيناجي ارواح السالفين » وقد كان التصوف والتفسير هما « قرنة عين الاستاذ » على حد تعبير مصطفى عبد الرازق غير ان جمال الدين الافغاني « خلق محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانتطاع الى التحنن والرياضة الى معنى للتصوف جديد (ص 74) وقد ترجم محمد عبده شيخه الافغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بأنه « حنيفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم » .

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامح ولكنه عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامي » : الصوفية هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » (ج 2 ص 205) وقال : « ان الصوفية اعقل من الابداء واشرف سيلقى الصوفية بهم راضين مبتسمين اما نحن فنسندهم الى النار في ركاب امريء القيس الذي انلده الرسول » (ج 2 ص 322) .

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة وقد لاحظ ذلك زروق في قواعد (القاعدة رقم 59) .

(52) ذكر الشمراني في « تنبيه المفتريين » (ص 7) ان بعض الناس دس في كتابه البحر المورود في المواليق والمعهود وفي مقدمة كتابه « كشف الغمة من جميع الامة » ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة واثار ذلك فتنة في الجامع الازهر ولم تخمد الفتنة الا بعد ان ارسل النسختين الاصيلتين المجازيين من بعض مشايخ الاسلام الى العلماء الازهريين للاطلاع عليهما وقد اشار الشمراني في كتابه الى ما استحدثه كثير من مشايخ وقرءاء عصره مما يخالف السنة حتى اصبحت اصول التصوف قريبة عند منتحلي الطريقة

المصر ذروتها . لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض امراء بني وطاس من ميع وانحلال .

فقد انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس نعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين واغلب ما فى الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ما لبث ان انقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الروايا منذ سنة 958 وذلك خوفا على ملكه لما كان للامة فى اصحاب الطوائف من اعتقاد . وفى ايام زيدان تضعف نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر فى كثير من النواحي وكانت شوكة الصوفية قوية وجانبهم منيما حيث بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها .

وقد قام ضد زيدان احد الادعياء التمهدين وهو احمد بن ابي محلى الذى توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام .

ولما استقر الملوك العلويون بالنفوذ فى المغرب قضى مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها فى بطن الرمان اوائل المحرم عام 1079 هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد ابن محمد بن ناصر وجيز مقلته للزحف الى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد ان تحقق صدق ولاية الرجل .

كما جدد المولى اسماعيل بعض الاضرحة التى لم تكن فى ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آي القرمان والاذكار والدعوات فلم ير المولود ما يدمو الى استنقاصها بيد ان الاستعمار وصنائع الاستعمار اسدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التى كانت تسري فى هذه البيوت الطاهرة .

ولعل من ابرز نماذج التصوف المغربي اى الفلسفة الروحية والخلقية المغربية رجلا تغلفت مقالاته السيادة فى قرارة النفوس فقومت اودها طوال اجيال متوالية وطبعت التصوف المغربي بيمس خاص افرقت منه الحقيقة الصوفية فى قوالب شرعية وروح التوكل فى صورة السبب ولطائف الروح واسرار النفس فى اشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدي يوسف الفاسي الفهري - ويمكن

واذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان قطاب التصوف كانوا فى نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العلوم وقد ذكر صاحب « نشر المثنى » انه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب فى القرن الحادى عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابي ابيكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي الذى تبلورت فى هذه الطريقة الزروقية وغالب فقهاء افريقيا - كما قيل - تلاميذه وقد قيل فى العربي ابن ابي الحاسن الفاسي ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده وهمه ابو زيد الذى افاض ابو العباس المقرئ فى وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه كما شبهه غيره بالسوطي لوفرة علمه وقد تمحض ابو زيد لتربية المريدين وتلقيس الاوراد على سعة علومه وذكر صاحب الديباج ان محمدا المقرئ تكلم فى طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون فى التصوف « اقامة المريد » و « رحلة المتبتل » و « كتاب الحقائق والرفائق » الذى شرحه زروق .

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة فى ربوع المغرب لاسيما البادية ولا يخفى ما اسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من اباد بيضاء فى هذا الباب وقد كان فى زاوية محمد بن وسعدن السوسي تسمانة طالب يكسبهم ويطمعهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبرته هذه اربعين سنة .

وكانت كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير فهذا ابو الحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية فى آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفى آخر حياته نفى يده من سائر العلوم الاخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف واهل الحاسن هذا كان اذا توجه من فاس الى القصر تعطلت الاسواق او كادت لخروج الناس لمقابلته .

وهذا النفوذ الذى كسبه الصوفية حدا المرابطين والموحدين الى امتحانهم حيث استدموا من الاندلس او افريقية امثال ابن العريف و ابي الحكم بن برجان و ابي مدين الغوث .

وقد هدات نوعا ما حركة الامتحان فى عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لان الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التى بلغت فى ذلك

القول بأن نظريات هذا الرجل الخلقية والنفسية والالهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية في هذا الباب .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يؤخذ من العالم الأدنى ليرقى الى العالم الاسنى وذلك عندما يتمحص صدقه واخلاصه وتضمحل انانيته فتتكشف في باطنه حقائق وتحتاج في سره وقائق

وتعرض له احوال وجدانية لا تنضبط ولا ترتبط بمهمود وقد تسمو روحانية الصوفي فيتجرد عن بشريته ويتحد أي في التوحيد لان الغناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذوقية وجدانية (فمن ذاق - كما يقول الشيخ يوسف - عرف ومن لم يدق لسلا حرج اذا سلم واهترف وهذه طرائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشارة اذ لا يفهم منك الا من اشرق فيه ما اشرق فيك) .

وقد تجلى ابرز مظهر للتصوف الحقيقي في المغرب في اقرار التسامح والسلام في المجتمع واسماف طبقاته المعوزة واجراء الامدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس فهناك مذهب صوفي مغربي بعث يرجع الفضل في وضع اسمه ونشر دعوته لرجل من اهل القرن السادس هو ابو العباس السبتي (53) الذي كان يرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الاسواق والطرق ليحضر الناس على البذل والجود مرددا بكلماته الخالدة :

(اصل الخير الاحسان واصل الشر البخل)
وقد اشتهر مذهبه ايما اشتهار حتى نمته مفاصره الحاشي في فتوحاته الكمية بصاحب الصدقة في مراكش .

وقد كان لهذه الدعوة الرها فأسست الملازم في مختلف انحاء المغرب حيث كان ياي المعجزة

والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراسح الوديع وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات الاحسانية فاضطر الملوك الى المساهمة فأسسوا الزوايا في الفلوات لا يواها عاري السبيل واوقفوا لها الاوقاف الوفيرة .

ومن نماذج الاسلوب الادبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه « شفاء السائل » حيث قال : « وقمني بعض الاخوان ابقاهم الله على تقيد وصل من عدوة الاندلس وطن الرباط والجهاد وماوى الصالحين والزهاد والفقهاء والمباد يخاطب بعض الاعلام من اهل مدينة فاس حيث الملك يزار وبغار العلم والدين تزخر وثواب الله بعد لانصار دينه وخلافته ويدخر طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية اهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلمنا من الكتب الموضوعه لاهله واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالمة العلوم والامتداد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالاخياء والرهابة ام لا بد من شيخ يبين دلالته ويحذر لهوائه ويميز للمريد عند اشتباه الوردات والاحوال مسائله فتتزل منزلة الطبيب للمرضى والامام العدل للامة الفوضى » .

ثم تحدث من اغراض التصوف ومصطلحاته فقال : « نبيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض » فمن ذلك تحليله لتكشف عند الصوفية بقوله : « وبيان ذلك ان المبصر اذا رأى شخصا ثم غمضت الاجفان دونه بقي متخيلا ثم اذا فتح اجفانه مرة اخرى رآه كما كان فبين العاليتين كشف »

وقد تحدث باسهاب من هذه المصطلحات فقال : « اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة من الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون لهم في مفاوضتهم والفاظ مخصوصة بمكان من

(53) وجه ابن رشد الى مراكش هالما قرطبيا لدرس نظريته التي لاحظ انها مرتكزة على المبدأ القائل بأن « الوجود ينفع للوجود » وقد لاحظ التادلي في منحق التشوف (الاعلام للمراكشي - فاس 1355 ج 1 ص 240) انه « يرد اصول الشرع الى الصدقة » وكان القراءان على طرف لسانه ولد عام 524 هـ ومات بمراكش عام 601 هـ وشيخه الفخار هو صاحب عياض - كان يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرق فيحضر الناس على الصدقة » وكان يعبر رفح البيدين للتكبير للتخلي عن كل شيء والركوع بالمشاطرة والسلام بالخروج من كل شيء وان سر الصوم الجوع وتذكر الجائع والزكاة التدرب على البذل .